المنهج القرآني في الاستدلال
على وجود الله تعالى

دكتور محمد محمد مرزوعبة
عميد كلية أصول الدين والدعوة

تعدد الأسلوب الذى اتخذه القرآن الكريم فى الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى — وعظيم قدرته ، وجليل حكمته ، القرآن الكريم قد جعل هذه الأدلة درجات تتناسب مع كافة مستويات خلق الله فهناك الأدلة التى تقوم على المحسوس لتناسب المستويات الدنيا فى التفكير لدى السذج والعوام ، وهناك الأدلة التى تقوم على المجردات ، والتى تتطلب مستوى عاليا من الفكر المنظم ، ثم هناك أدلة بين هذه وتلك ، لتناسب من هم بين هؤلاء وأولئك .

وفى مقالنا هذا سوف نلمح إلى شىء من المزايا التى امتاز بها المنهج الاستدلالى فى القرآن الكريم على ما عداه من المناهج الأخرى التى اعتمد عليها المتكلمون والفلاسفة وغيرهم من المفكرين الذين لم يقنعوا بما ورد فى القرآن من أدلة ولم يسيروا على المنهج القرآنى ، وإنما اخترعوا لأنفسهم مناهج ، ووضعوا على أساس منها أدلة كثيرة ومتنوعة ، وسنوضح فى هذه المقالة قصور هذه المناهج ، وتهافت أدلتها التى بنيت عليها .

وابتداء سوف نلمح إلى شىء من المزايا التى انفرد بها المنهج القرآنى ، فى الاستدلال على وجود الله — سبحانه وتعالى — وعلى صفاته وأفعاله ، ونقول : (إلى شىء من هذه المزايا) لأن حصر المزايا القرآنية جميعها ليس يدخل تحت استطاعة بشر ، فالقرآن الكريم دائماً فيه الجديد ، وهذا الجديد يتناول كل موضوع يبحثه وكل مجال يتطرق إليه ، ومن هنا كان ميدان الاجتهاد للتوصل إلى هذا الجديد مفتوحا دائماً أمام كل مسلم صادق

النية ، سليم الطوية ، عنده قدر من الذكاء ، وقدر أكبر من توفيق الله — سبحانه وتعالى — .

ومن الواضح أن كل ميزة نذكرها للمنهج القرآنى ، يوجد فى مقابلها نقص فى المناهج البشرية ، وهذا النقص فى المناهج البشرية هو الذى يوضح بجلاء ما فى منهج القرآن من المزايا ، لذا ، فلعله من الأوفق أن نشير بجانب كل ميزة للمنهج الربانى ، إلى ما يقابلها من نقص فى المنهج الإنسانى .

على أنه ينبغى علينا أن ننبه إلى مرادنا هنا من استعمال لفظة (منهج) بجانب فعل الحق — سبحانه وتعالى — من حيث أن المراد بالمنهج هو مجموعة القواعد التى يتكون منها أسلوب معين يلتزمه الفاعل إزاء فعل ما . وهذا أن يكون هو نفسه واضع تلك القواعد ومؤسسها ، أو واضع هذا المنهج ، فالفاعل لابد أن يخضع لقواعد المنهج وأن يتقيد به حتى لو كان هو واضعه ، بل ان ذلك يجعله أكثر تقيداً والتزاماً بتلك القواعد التى وضعها ، فالمنهج — إذن — هو قيد يحد من حرية الفاعل ، ويضعه فى إطار من الجبر ، ونحن لا نقصد هذا المعنى حين نتكلم عن فعل الحق — سبحانه وتعالى — ، فالحق — سبحانه — منزه عن الجبر ، وله الإرادة التامة ، والمشيئة المطلقة ، ولكنا نقصد من كلمة (منهج) بجانب كلام الله — سبحانه — أن نتلمس تلك الأسس التى امتاز بها القرآن الكريم فى طريقته الاستدلالية ، وأن نصوغ من هذه الأسس — بقدر ما نستطيع — منهجا نقيمه نحن ، إذا أردنا أن نقوم — فى هذا المجال — بشىء يستحق الذكر .

وأهم ما استطعنا أن نصل إليه من مميزات المنهج القرآنى فى الاستدلال ما يلى :

أولا : أن القرآن الكريم — كما أشرنا سابقا — يوجه أدلته إلى الناس أجمعين ، بكل طوائفهم وفئاتهم ، والقرآن الكريم يرعى تلك الفوارق الضرورية فى الفهم والوعى والثقافة ، وبعامة جميع فوارق الإدراك ،

فيخاطب الجاهل الساذج بأدلة تتفق مع إدراكه ، ويخاطب الذكى العالم بأدلة تتفق مع علمه وذكائه ، ويخاطب الذين هم بين هؤلاء وأولئك من مستويات على قدر مستوياتهم

وإلى جانب هذه الميزة للمنهج القرآنى نرى ذلك النقص الواضح فى المناهج البشرية ، حيث يضع كل فريق أدلته على صورة لا يمكن أن يفهمها غيرهم ، فالفلاسفة يضعون أدلة لا يفهمها إلا الفلاسفة وكذلك المتكلمون ، فالمفكر من هؤلاء كان يجهد نفسه فى إقامة الدليل ، وكان هذا الدليل يخرج صورة لنفسية صاحبه ، ونوع ثقافته .

ولقد أتى على هؤلاء المفكرين حين من الدهر كانوا يضعون هذه الأدلة لا للتدليل على وجود الله — تعالى — وصفاته وأفعاله ، ولكن لاظهار براعتهم وذكائهم ومدى تمكنهم من فنونهم ، وطبيعى أن هذه الأدلة — على هذه الصورة — هى عقيمة الإنتاج ضئيلة الفائدة ، وأن دليلا مشهورا لدى المتكلمين ، هو دليل الحدوث ، لهو أعجز من أن يجعل كافراً يؤمن ، أو يزيد مؤمناً إيماناً ، وأكثر منه عقما ما يسمى بدليل الإمكان وعلى مثل ذلك قس بقية الأدلة عند هؤلاء وأولئك .

ثانياً : ان المنهج القرآنى يقوم على إقناع الإنسان بجانبيه الوجدانى والعقلانى ، فالإنسان — كما هو معروف — مركب من جانبين ، جانب وجدانى ، وجانب عقلانى ، وكل من هذين الجانبين له أسلوبه الذى يعالج به ، فليس يقنع الجانب الوجدانى ما يقنع الجانب العقلانى ، والعكس صحيح ، وحين نقتصر فى محاولاتنا إقناع الإنسان بقضية ما على مخاطبة جانب واحد ، فان تلك المحاولات تفشل يقينا ، ولا تؤتى ثمارها المرجوة ، وقصارى ما نصل إليه فى تلك الحال هو أن نخلق نوعا من الشك والحيرة لدى الإنسان ، ولكننا — أبدا — لن نصل إلى مرتبة الاقناع ، لأن الوصول إلى تلك المرتبة وهن بتضافر الوجدان والعقل جميعاً .

إذا عرفنا ذلك ، استطعنا أن نضع أيدينا على العلة ومكمن الداء فى تلك الحال المحيرة ، حين نرى دليلا من الأدلة وقد صيغ على درجة كبيرة من الدقة والصياغـــة المنطقية ، ولا نكاد نضع أيدينا على خلل منطقى فيه ، ولكنا — رغم ذلك — نجده عديم الثمرة ، عقيم الإنتاج ، لايشعرك بشىء من اليقين فيما سيق من أجله ، ولاتحس بأنه يفرض عليك شيئاً أو يلزمك بشىء ، وما ذلك إلا لأنه أهمل جانبا مهماً من جانبي شخصية الإنسان .

وانك حين تدرك أن الدين فى كل قضاياه يعتمد على الجانب الوجدانى أكثر من اعتماده على الجانب العقلانى ، فإنك تدرك أن الأدلة التى صيغت بأسلوب عقلى محض لم تفقد الجانب المهم فحسب ، بل فقدت الجانب الأهم ، حين عرت عن كل ما يخاطب الوجدان ويأسره .

وعلى هذا النقص الواضح ، والقصور الذى لا يخفى سارت كل أدلة المتكلمين والفلاسفة ، ولذا لم نحس أبدا أن هذه الأدلة قد جعلت الكافر يؤمن أو زادت المؤمن إيماناً ، بل لعل ضررها كان أوضح ، حين يقرأها من لا يتعمق فى دين الله ، فيتوهم أن هذا الدين إنما يقوم على أساس من هذه القواعد التى لا تحرك فيه شعوراً ولا وجداناً ، فيحس بنوع من خيبة الأمل ، وربما شعر بدبيب الشك يراود نفسه المؤمنة .

وعلى العكس من ذلك كانت أدلة القرآن الكريم ، فهى أدلة عقلية — فى المستوى الأسمى من حيث الدقة والإصابة ، ولكنها لم تأت فى تلك الصورة الجامدة التى تأنفها الفطرة ، وينفر منها الطبع ، وإنما سيقت هذه الأدلة فى جو وجدانى يأسر القلب ، ويستأثر بالوجدان ، ويهز المشاعر ، ويستجيش العواطف والأحاسيس ، فهى إذن أدلة تخاطب الإنسان بكل نواحيه ، تخاطب العقل بلغته ، والوجـــدان بلغته ، ولعل هذا سر من أسرار الإبداع القرآنى ، واقرأ فى ذلك — على سبيل المثال — قوله تعالى — من أول سورة الرعد :

«المر . تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . . . الآيات إلى قوله — تعالى — كذلك يضرب الله الأمثال ١ — ١٧ »

ثالثا : أن الأدلة القرآنية تعتمد على الأمور الموضوعية الواقعية التى يتعامل معها الإنسان فى كل وقت — مثل قوله — تعالى — : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟) ، وقوله — سبحانه — (فلينظر الإنسان إلى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، وفاكهة وابا ، متاعا لكم ولأنعامكم) .

وهذا من شأنه أن يقرب الدليل ، ويسر إدراكه ، ويمهد النفس لتقبله ، ويقوى الالتزام به ، وفى نفس الوقت يقطع السبيل على المجادلين المعاندين ، فلا يتيح لهم سبيلا إلى جحده أو الطعن فيه .

هذا بخلاف أدلة الفلاسفة والمتكلمين التى تعتمد على أسس نظرية ، أو تحتوى على بعض الأمور الموضوعية لكنها لا تدرك بسهولة ، ولا يمكن التسليم بها بيسر ، وعلى سبيل المثال ، دليل الإمكان ، يعتمد على تقسيمات منطقية محضة ، تفتح المجال أمام الجدل واللجاج ، وكذلك دليل الحدوث يعتمد فى بعض جوانبه على أمور موضوعية ، ولكنها مصوغة صياغة منطقية نظرية تجعل إدراكها صعب المنال على المتخصصين ، فضلا عن غيرهم ، بالإضافة إلى أن كل مقدمة من مقدمات الدليل تحتاج إلى دليل ،

والدليل إلى دليل وهكذا ، ووسط ركام الأدلة ، وأدلة الأدلة . تصاب النفس بالسأم والملل ، وتنصرف عن مقصودها الأصلي .

رابعاً : أن الأدلة القرآنية تعتمد على ما ركزه الله — سبحانه — في الفطرة الإنسانية من السعي إلى معرفته ، والدينونة له ، ولذا فإن القرآن الكريم لا يسوق الأدلة على وجـــود الله — سبحانه — بشكل مباشر ، ولكنه يعتمد على البذرة المغروسة في فطرة الإنسان ، فهو يغذيها وينميها ويوجه الخطاب إليها . ومن هنا نجد أن أدلة القرآن الكريم تقوم على لفت الأنظار إلى قدرة الله — سبحانه — وعظيم إبداعه ، وجليل حكمته في صنعه وجزيل نعمه على خلقه . والذي يقرأ حديث القرآن عن وجود الله — سبحانه — لا يكاد يستشف منه أنه حديث إلى منكر لوجود الله — تعالى — بقدر ما يشعر بأنه حديث إلى غافل عن هذا الوجود فكان الاعتراف واقع ، ولكن الداء في الغفلة عما يجب لهذا الموجود . وحديث القرآن الكريم — بهذه الكيفية — يلفت إنتباه الإنسان إلى فطرته التي لوثها وانحرف بها الوسواس الخناس ، ويمهد الطريق لعودة الإنسان إلى ربه ، وذلك بإشعاره أنه ليس من شأنه أن يكون منكراً بل غافلا ، واقرأ — على سبيل المثال — بالإضافة إلى الآيات السابقة — قوله — سبحانه وتعالى — من سورة يونس :

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » ٣١—٣٢ .

خامسا : ان القرآن الكريم لا يسوق الدليل على صورة عامة مجملة ، ولكنه يسوق الأدلة على هيئة جزئية مفصلة ، وبذلك يغني عن التفصيل

بعد ذلك ، وما يحتويه التفصيل من تفريعات قد تلفت النفس عن الهدف الأصلى فضلا عن أن الأمور الجزئية تدركها النفس بسهولة ويسر ، واقرأ فى ذلك — إضافة الى ماسبق — قوله — سبحانه وتعالى — :

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ... إلى قوله تعالى فى سورة النحل: وان تعدو نعمة الله لاتحصوها) (١٠—١٧)

وذلك عكس الأدلة الوضعية ، فهى تقوم على التعميم ، ثم تنتقل إلى التفصيل ، ويحتاج التفصيل إلى تفصيل وهذا من شأنه أن ينفر النفس ويجعلها تشعر بالملل والسأم ، ويصرفها عن الهدف المنشود .

سادسا : أن القرآن الكريم ينوع من الأدلة التى يذكرها فى المجال الواحد . فأنت تستطيع فى أى مجال يتحدث فيه القرآن الكريم عن عظيم صنع الله — سبحانه — أن تجد مجموعة من الأدلة المفسقة المرتبة ترتيبا بديعا ، ، بحيث لا تقف من بديع صنع الله — سبحانه — على مثال واحد، بل أمثلة كثيرة متعددة ومتنوعة ، فأنت تجد نفسك محاصراً بهذه الأدلة التى تأخذ بلبك ، وتأسر فؤادك ، ولا تدعك إلا وقد أسلمت نفسك للعليم الحكيم . واقرأ فى ذلك — بالإضافة إلى كل الآيات السابقة — قوله — تبارك وتعالى — :

« ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن

آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» .. .. إلى قوله — تعالى: «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» سورة الروم ٢٠ — ٢٧ .

وبعد ، فهذه بعض الميزات التى استطعنا أن نلمح إليها من ميزات المنهج القرآنى فى حديثه عن وجود الله — سبحانه وتعالى — وصفاته وأفعاله . ونؤكد أخيراً ما أشرنا إليه إبتداء من أننا لا نستطيع أن نحيط بتلك الميزات ، وحسبنا أن نلفت النظر إلى شىء منها على قدر الجهد والطاقة . فهو حديث العليم الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

دعاء

« اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وأهلى ومالى وولدى ، ومن الماء البارد على الظمأ .

« اللهم متعنى بسمعى وبصرى ، وانصرنى على من ظلمنى ، وخذ منه بثأرى .

« اللهم اجعل خير عمرى اخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك .